الأقنومُ، إستعلانٌ إلهيٌّ

رغم الشكل اللغوي البشري

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠١٨

www.coptology.org

كانت دراســـتي للديانات المقارنة قد بدأت بدروس القمص إبراهيم عطية مدير الكلية الإكليريكية، وهو من أبرع المفكرين الذين عرفتهم، ولكن انشـغاله بخدمة الكهنوت والإكليريكية لم يعطِ له الوقت لكي يكتب، وكنت أجد في الحوار الشـخصـي معه ما هو أعظم من قراءة الكتب، وكانت المكتبة العربية المســـيحية في هذا الوقت (١٩٥٧) فقيرة جداً. ولم يكن لدينا سـوى مجلة رجل آخر عظيم هو القمص مرقس سـرجيوس الذي ترك ذخيرةً كبيرةً في مجلة "المنارة"، وذلك بخلاف ما كان ينشـره الأسـتاذ حبيب سـكاكيني في مجلة "الصخرة الأرثوذكسية".

الإهتمام الأول:

والاهتمام الأول الذي يمكن أن نرصـــده في هذا المجال هو اهتمام المؤرخين من المسيحيين وغيرهم، هؤلاء ليس أمامهم إلا وثائق التاريخ المسيحية يقلّبون ما فيها بحثاً عن جذور الإيمان المسـيحي. وقد ترك لنا المؤرخ الألماني هارناك خمسـة مجلدات، بدأت بفكرة عامة كانت منتشرة في المدارس الألمانية، وهي أن المسيحية صارت دعوة الأمم، وتحصَّنت بالثقافة اليونانية، وتركت أصـلها الآرامي والعبراني. وظلت هذه الفكرة سـائدة في القرن الـ ٢٠ في شرح إنجيل يوحنا لرودلف بولتمان وعددٌ آخر من تلاميذه.

لكن الحقيقة التي لا يجب أن تغيب عنا، هي أن لغة المجتمع كله لم تكن العبرانية ولا الآرامية، بل اليونانية، وذلك بعدما فتح اســـكندر المقدوني منطقة امتدت من بلاد اليونان حتى أفغانســتان (الهند)، وســادت اللغة اليونانية، حتى يهود الاســكندرية ترجموا أسفار العهد القديم إلى اليونانية التي عُرفت بعد ذلك باسم "السبعينية"، وقد قام بالترجمة ثلاثة من اليهود هم أكويلار – سيماخوس – ثيئودوتوس.

الإهتمام الثاني:

هو الاهتمام باللغة وبالمفردات. وبالطبع، فقد انشـــغل الدارســـون بالمفردات اليونانية *Prosopon – Hypostasis* والتي ظهرت تاريخياً عندما حاول المفكرون المسيحيون استخدام أفضل ما يمكن استخدامه، **لأن الحدث *Event* سَبَقَ اللغة، وهو امتياز المســـيحية الأكبر، فالفعل، أي ما يحدث، يســـبق اختيار الكلمات، وهذا ما يحدث لنا نحن البشر في المعاملات الاجتماعية.**

كان التجســـد الإلهي هو "الفعل / الحدث" الذي صـــدم عقولاً كثيرة: "الكلمة صار جسداً". ولأن الفعل سبق الكلمات كلها، كان البحث عن الكلمات المناسبة بمثابة ضرورةٍ؛ لأن الحوار حول حقيقة تجسد ابن الله دار بواسطة ثلاث جماعات:

الأولى: المشبِّهة، وهم الذين قالوا إن جسد يسوع هو خيال.

الثانية: فرق الغنوســية، وهم الذين خلطوا الإنجيل بثقافة العصـــر اليونانية، وكان العثور على أناجيل نجع حمادي في صـــعيد مصـــر دليلاً على صـــراع الثقافة مع التعليم المسيحي. ويمكن ضم المانويين، أتباع ماني إلى الغنوسيين.

الثالثة: هم جماعة المؤمنين المســـيحيين المنتشـــرة في أرجاء الإمبراطورية الرومانية (القديمة)، وهم الذين حفظوا الإيمان وصـــاغوا الصـــلوات والألحان، وســـجَّلوا الاعتراف بالإيمان الذي عُرِفَ فيما بعد باسـم "قانون الإيمان". ومن التاريخ العام والكنسـي، نعرف أن الفرقتين الأوليين كانتا في طريق الزوال، واختفت بعد القرن الرابع، وإن بقيت بعض الأفكار والممارسات في بعض مدارس النسك المتطرف الذي قام على معاداة الجسد؛ لأن الغنوسية والمانوية اعتقدا بأن الجسد عقابُ إلهِ الشر، وأنه سجنٌ للنفس الإنسانية يجب أن تتخلص منه.

ومن أُستاذنا القمص إبراهيم عطية، سمعنا عبارةً خالدةً، وهي: "المسيحية ليست

ديانة كتاب، بل ديانة الإله المتجسد". وظلَّت هذه العبارة تضيء طريقي وأنا أشق الطريق وسط مدارس النقد التاريخي؛ لأننا في ظل الإيمان بالإله المتجسد:

١– لسنا إزاء عبارات ونصوص، مهما كان مصدرها، بل أمام علاقة شركة جديدة لم تكن متاحة بالمرة قبل تجسد الكلمة ابن الله.

٢– كانت "الرسالة إلى الوثنيين، وتجسد الكلمة" للعظيم أثناسيوس قد كُتبا والوثنية لا تزال في شبابها في الإسكندرية، وهو ما سجَّله القديس أثناسيوس في الفصول الأخيرة من الرسالة إلى الوثنيين، وبالتالي يتعذَّر علينا تاريخياً أن نقبل الإدعاء بأن المسيحية أخذت تعليم الثالوث من الوثنية.

الانتقال من العبرانية والآرامية إلى اليونانية:

بعد مجمع الرسل في (أع ١٥)، ودعوة الأمم لقبول الإنجيل، وهي دعوةٌ موجَّهةٌ لكل الأمم، كان استخدام اليونانية أمراً فرض نفسه؛ لأن دعوة التهود التي قاومها الرسل في (أع ١٥)، وأيضاً القديس بولس، لا سيما في رسائل: كولوسي – غلاطية، تؤكد أن بقاء اللغة العبرانية هو نهرٌ صغير يؤدِّي حتماً إلى اليهودية، ويشجِّع حركة التهود، لأن اللغة ليست مجرد كلمات، بل تحمل معها العادات والأفكار والاعتقادات، بل والتاريخ نفسه. ولعل مَن دَرَسَ تاريخ انطاكية حتى زمان ذهبي الفم (القرن الخامس)، وجد أن المجموعة اليهودية كانت لا تزال تنطق الآرامية، وكان المسيحيون الانطاكيون يتحدثون الآرامية، وحدث تزاوجٌ ومشاركةٌ في الأعياد أشار إليه ذهبي الفم في العظات "ضد المتهودين". وإن دراسة شاملة للرسالة إلى العبرانيين، تؤكد لنا عنف وذكاء حركة التهود، وأنها قادرة على أن تعطي للإنسان –من خلال الممارسات– نوعاً ثابتاً من "الهوية" والإحساس الخاص بالوجود بسبب ما يقوم به من أعمالٍ، دعاها رسول المسيح بولس: "أعمال الشريعة" مثل الاغتسالات ونوع الطعام .. وهنا بالذات، الهوية ليست من الإيمان، بل من الطقوس.

وقد جاء الانتقال إلى اليونانية واستخدامها في مجامع يهود الشتات بعدة امتيازات وببعض المشاكل:

أولاً: استخدام لغة عالمية، وهي اليونانية، وهي لغة عدد كبير من شعوب الأرض.

ثانياً: استخدام كلمات يونانية لها تاريخ في اليونانية الكلاسيكية، أي الفلسفة اليونانية، وهو ما جعل للرسالة المسيحية شكلاً عقلياً وثقافياً واضحاً.

ثالثاً: ربط الفكر الديني بالحياة الثقافية اليومية.

ولكن مع الفكر الفلسفي اليوناني جاء:

أولاً: البحث عن قضايا الوجود، أو ما صار يُعرف بعد ذلك بـ"الانطولوجيا".

ثانياً: تحليل ما يقدَّم من أفكار، وبحث تكوينها ومعانيها حسب ما هو مدوَّن، أي حسب النصوص. وتُعد الأريوسية خيرُ مثالٍ على ذلك؛ لأن الابن –في التاريخ– لا يمكن أن يكون مع الأب؛ لأن الواقع يؤكد وجود الأب قبل الابن، وهي نظرية بُنيت على المعنى الظاهري لكلمة "ابن"، وتركت المعنى اللاهوتي الذي يؤكد على أن "الآب" لا يمكن أن يكون الآب الأزلي، إلا بالابن الأزلي. ومِن هنا جاءت عبارة: "المولود قبل كل الدهور" في قانون الايمان النيقاوي ٣٢٥م.

ولكن كل تقدُّمٍ إلى الأمام لا يمكن أن يتم بدون عراقيل.

وجه الله:

في صراع يعقوب (تك ٣٢: ٣٠) ورد التعبير "فنوئيل – פנואל" وهو تعبيرٌ متكرر في (قضاة ٨: ٨ – ١ملوك ١٢: ١٥)، ووردت الكلمة ٧٨٠ مرة في العهدين.

وهي تعبيرٌ عن استعلان، أي عن الشخص نفسه، وليس مجرد ملامح الوجه من أنف وعينين إلخ، ولعل تحذير الرب من نفاق الفريسيين الذين يغيّرون وجوههم (متى ٦: ١٦)، هو أبلغ معنى عن إعلان ما يريده الشخص، وأيضاً "وجه السماء" الحمراء، يُنذر بعاصفة.

وتغيَّر "**وجه**" يسوع، **وأضاء وجهه** مثل الشمس (متى ١٧: ١ – لوقا ٩: ٢٩). وإشراق "وجه يسوع" جعل الرسول بولس يكتب: "الله الذي قال أن يُشرق نورٌ من ظلمة، هو الذي أشرق في قلوبنا نور معرفة مجد الله في وجه يسوع المسيح" (٢كو ٤: ٦)، وهو الإعلان الذي سيصل إلى كماله عندما "**بوجهٍ مكشوف**، كما في مرآة، نرى مجد الرب ونتغير إلى تلك الصورة عينها" (٢كو ٣: ١٨).

"وجه – πρόσωπον" في يونانية الكتاب المقدس

وردت الكلمة ٤٣٨٣ مرة في العهدين، وهي تعني اتجاه الوجه نحو الآخر، أي نظرة شخصية، وتعبير عن استعلان شخصي:

ف "وجه يسوع" هو استعلان أبوة الآب لنا في "وجه يسوع المسيح".

وهنا أتذكر سخرية شهود يهوه، وبالذات رسم خنزير بثلاثة رؤوس. وطبعاً، السؤال: هل الله له ثلاثة وجوه؟ هو سؤالٌ يجيء من التراكم الفلسفي اليوناني الذي:

١- يضع النص أو المفردات أساساً لكل فكرة.

٢- يحدد معنى النص على أساس ما هو متعارف عليه لغوياً. وفي هذا الإطار بالذات، صارعت كل الهرطقات القديمة، الأرثوذكسية، ولم تكسب الهرطقات إلا محبي الشجار والعراك، وهم أحياناً ليسوا قلة.

على أن الإجابة على السؤال السابق أسهل، إذا عُدنا إلى المعنى اللاهوتي، وهو

الاستعلان؛ لأن الشخص الواحد يتغير وجهه من السرور إلى الغضب إلى الفرح، ويبقى رغم تغيُّر الوجه، هو ذات الشخص الواحد، رغم ما جاءت به المواقف والعلاقات.

وهنا يجب أن ننتبه إلى أن استعلان الله في علاقة خاصة في πρόσωπον – Prosopon يسوع، ثم استعلان يسوع في علاقة خاصة بالروح القدس، لا يحوِّل الكيان، وإنما يميّز؛ لأن التمييز يمنح لنا غنى التعدد، والتعدد هنا هو الثالوث. وقد سبق لنا أن ذكرنا في مناسبات متعددة، كيف كشف الله عن حياته للإنسانية[١].

حيرة العقل الإنساني الطبيعي:

كيف يكون الثلاثة واحد؟ سؤالٌ سمعناه مئات المرات في مصر وخارج مصر. وهو سؤالٌ خاطئٌ جداً؛ لأنه يفرض لغة الأرقام على الله، وبالرغم من أن لغة الأرقام هامة جداً في حياتنا، ولكننا يجب أن نعلو على ما فوق الأرقام، بل ما فوق اللغة البشرية، إلى **الحدث** *Event* وهو لم يكن مجرد حديث، بل كان نزول الله الكلمة إلينا وتجسُّده من البتول. لم يكن العهد الجديد خطاباً دينياً، بل كان استعلاناً جديداً عن أُبوة الله. ولذلك، حدثت نقلة نوعية في لغة الخطاب، ظهرت في خطاب المسيح نفسه عن "الآب"، وليس عن "ألوهيم" أو "يهوه"، ولم يكن ذلك من أجل الأمم الذيم لم يكونوا على علاقة بكتب العهد القديم، بل كان هذا هو الاستعلان الجديد للعهد الجديد.

جاء ذلك الاستعلان، وحملت كلمات الرب ثلاثة مستويات:

المستوى الأول: الرسالة الموجَّهة إلى الذين يسمعون.

---

(١) راجع مثلاً: ترجمتنا لكتاب الوجود شركة للأسقف يوحنا زيزيولاس، ودراستنا بعنوان: حوار عن الثالوث. كما جاءت ترجمة "حوار عن الثالوث" للقديس كيرلس الكبير، وكتاب "الكنوز في الثالوث" لتدفع بالدارسات إلى ما هو أصيل. (فليعوض الله الأخوة جوزيف فلتس وجورج عوض على تعبهم).

المستوى الثاني: الجديد الذي لم يُسمع من قبل.

المستوى الثالث: العلاقة الجديدة التي تدعو إليها رسالة أو خطاب الرب نفسه.

كل كلمة ننطق بها هي مجموعة من ثلاثة مستويات، وهي ليست على ما يبدو صوتاً واحد للمتكلم، بل هي *Polyphone* أصواتٌ عدة، هي صوت المتكلم، عندما يرد المتكلم على سؤال أو معارض، أو عندما ما يريد المتكلم أن يصل إلى السامعين.

لعل أسهل مثل على ذلك هو قول الرب: "قد سمعتم أنه قيل للقدماء"، أي صوت العرف والشريعة. ثم: "أما أنا فأقول لكم"، أي صوت يسوع يحمل الجديد، ثم: "أحبوا أعداءكم"، وهي رسالة جديدة. كل هذا في سطرين أو ثلاثة.

وهكذا، بدل حساب الأرقام، يجب حساب الرسالة نفسها: أُبوة الله – محبة الآب في إرسال الابن – محبة الابن في قبوله أن يتجسد – محبة الروح القدس في أن يقدِّم جسداً بشرياً من البتول لابن الله.

الله لا يُحسَب رقمياً، ولا حتى برقمٍ واحد. واستخدام كلمة "واحد" هو للنهي عن الشِّركِ وتعدد الآلهة، ولكنه ليس استعلاناً عن حقيقة الله.

لماذا دخلت كلمة Hypostasis في اللاهوت المسيحي؟

كان الضعف الذي يكتنف كلمة "وجه"، هو التغيير؛ لأن التعبير المتغيِّر لا يؤكد الأزلية، ولا يعطى للتعبير "كينونة". الكلمة *Hypostasis* وردت في (عب ١: ١-٣) وتُرجِمَت "رسم جوهره"، أي "كيانه المطابق تطابقاً تاماً لكيان الآب". وظلَّت كلمة *Hypostasis* مرادفة لكلمة "جوهر" حتى القرن الرابع، إذ لا فرق بين *Ousia* و *Hypostasis* لأن ما هو كائن وحقيقي، يمكن التعبير عنه بأي كلمة طالما أن الكلمات لا تعارض ولا تدمِّر الإيمان، وهو رسالة الاستعلان الإلهي الذي من عند الآب للإنسانية في كيانٍ مطابقٍ تماماً ولا يختلف عن كيان الآب.

هكذا دخلت كلمة "أقنوم – *Hypostasis*" لكي تؤكد أن الابن هو "تعيين" في الله، وليس مجرد صفة من صفات الله. وقدَّم آباء قيصرية "الثالوث" على أن حقيقة الله هي أبوته، أي الآب الذي منه يولد الابن، ومنه أيضاً ينبثق الروح القدس.

وإن كان قد ساد في الغرب بعد انتشار كتاب "الثالوث" للقديس أوغسطينوس، نسبة الآب والابن والروح القدس إلى الجوهر، لكن من الواضح، أن أبوة الآب هي جوهره (راجع يوحنا زيزيولاس – الوجود شـــركة)، أي كيانه الواحد الذي منه يُولَد الابن أزلياً، ومنه ينبثق الروح القدس أزلياً أيضـــاً. ومن هنا جاءت عبارة القديس باســيليوس: "جوهر واحد وأقانيم ثلاثة"، أي حقيقة كيانية واحدة لحياة واحدة مستعلَنة في الثالوث.

لماذا نتمسك بالأقانيم الثلاثة؟

الثالوث هو استعلان حياة جديدة قائمة على:

١- التمايُز التام.

٢- الوحدة التامة.

٣- الشركة التامة في كل ما يخص حياة الله.

التمايز: هو تأكيد أن الآب ليس الابن، وأن الابن ليس هو الآب، وكذلك الروح؛ لأن هذا التمايُز يشـــرح لنا العمل الخاص لكل أقنوم في خلاص الإنســـان، ورد الإنسانية إلى شركة محبة الثالوث.

الوحدة: هي وحدة الجوهر، أي الحياة واشتراك الأقانيم في كل الصفات الإلهية.

الشركة: لعل أفدح الأخطاء التي سادت في هذا الشأن هو اعتبار أن المحبة صفة من صفات الله. هذا اعتبارٌ فلسفيٌ محض؛ لأن الرسول يوحنا عندما كتب: "الله محبة"، لم

يكن يقصد "صفة" في الله اسمها المحبة، بل على وجه التحديد "حياة الله"، وهو ما تقدِّمه الرسالة ككل: "كل مَن يحب فقد وُلِدَ من الله" (١يو ٤: ٧)، ولا يمكن أن نولَد نحن من صفة من صفات الله، بل من الله نفسه، من محبته التي بمقتضاها دعانا لأن نكون "أبناء له". إن شركة المحبة هي شركة الثلاثة في كل الحياة الإلهية وفي تدبير الخلاص، وأن "كل ما هو للآب هو للابن". وصلاة يسوع في يوحنا ص ١٧ هي أعظم ما سمعته الإنسانية عن الله وعن حياته ومجده ومحبته المستعلَنة في يسوع، بل وعن الحياة الأبدية.

المحبة هي حياة الثالوث. "الله محبة"، ليست مجرد عبارة تُقال في كلمتين، ولكنها تحمل مستويات التعبير التي تكلمنا عنها سابقاً:

المستوى الأول: هو الرسالة الجديدة التي لم تُسمع من قبل.

المستوى الثاني: هو تجسُّد المحبة واستعلانها أمام البشرية.

المستوى الثالث: هو دعوتنا نحن للشركة؛ لأننا لم نسمع فقط، بل "الذي كان من البدء، الذي رأيناه بعيوننا (متجسداً) الذي شاهدناه ولمسته أيدينا (إنسانيته) من جهة كلمة الحياة" (١يوحنا ١: ١). فالحقيقة التي سبقت التعبير هي "الحدث" الذي صاغ وقدَّم الكلمات. والكلمات تؤكِّد لنا أن ما نحن بصدده هو الواقع الحي، أي كما قال الرسول: "من جهة كلمة الحياة"، أي "بشارة الحياة". كلمة "الحياة" ليست مجرد كلمة، بل هي τού λογου τής ξωής ولوجوس *Logos* الحياة، أي: محتوى رسالة ما يقدَّم، وليس مجرد النطق.

محتوى الرسالة هو تجسد ابن الله "الذي لمسته أيدينا". ولذلك كان وضع جسد الرب في يد المتناولين في العصور الأولى، وحسب شهادة الآباء أوريجينوس وكيرلس الأورشليمي وغيرهما، هو اعترافٌ بتجسد الله الكلمة، وهو الاعتراف الذي لا زال يقال: "جسد عمانوئيل إلهنا، هذا هو بالحقيقة آمين". لكن يلزمنا وقفة هادئة لنرى العلاقة بين اللفظ أو الكلمة، والاستعلان الإلهي:

أولاً: يعبِّر اللفظ عما هو حادثٌ فعلاً، والذي لم ينشـــأ بقوة اللفظ، بل فَرَضَ الحدثُ قوته على اللفظ. وحتى في العهد القديم، كان الحدثُ هو سبب ومصدر صياغة الوصـية الأولى: "أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصـر، لا يكن لك آلهة أخرى أمامي".

لقد تعرَّضـت قوة البشـارة المسـيحية للتزييف عندما حاولت حركات دينية في مقدمتها حركة الإصـلاح، فرض النص كأسـاس للتعليم، بل وكمُفسِّـر للحدث، وصـار الصـراع على شـرح نصـوص الكتاب المقدس بعهديه، هو البئر الذي ابتلع الجانب المستيكي، وأضاع الشركة في حياة الثالوث؛ لأن الشركة ليست لفظاً يُقال فقط، بل هي أيضـاً الاسـتعلان الشـخصـي لبشـارة المحبة والمصـالحة، ودعوة الثالوث لنا لأن نشـترك في حياته.

ثانياً: الحياة تسبق الكلام وتسبق اللفظ، هذه هي رسالة العهد الجديد. وتجسُّد ابن الله لم يكن لفظاً، بل حدثاً عبَّرت عنه الألفاظ، وهو حدثٌ فوق كل قدرة اللفظ، وما اللفظ إلا إشـــارةً ورمزاً يؤكد ما حدث، ولذلك يجب العودة إلى الحدث لفهم اللفظ، والحدث هو الذي يضبط معنى أو معاني الألفاظ.

ثالثاً: يحتوي الحدث على ثلاثة مستويات في الاستعلان:

المسـتوى الأول: حقيقة الشـخص. وقد انفردت المسـيحية دون غيرها بالبحث عن حقيقة شخص المتجسد؛ لأن هذا هو ما يعطي ما يقوله المتجسد من مصداقية.

المســـتوى الثاني: اســـتعلان الشـــخص، أي المتجســـد، وأنه جاء لكي يلبي احتياجات البشـر، أو حسـب عبارة معلمنا أثناسيوس: كان تجسـده هو لمعونتنا ولخلاص الإنســـانية من الموت، لا من الخطية وحدها؛ لأن عبارة الرب: "أنا هو القيامة والحياة"، ليسـت عن خطية أو خطايا البشـر، بل عن الموت وعن حاجتنا إلى الخلاص من الموت. هنا لا يمكن فك رموز أو إشارات الألفاظ ونقلها بعيداً عن الشخص.

المستوى الثالث: هو ما يقدمه الشخص من إمكانيات للشركة في حياته، وفيما يملكه كشـــخص: "جئت لكي يكون لكم حياة، ويكون لهم أفضـــل". وعبارات مثل: "المسيح حياتنا"، وغيرها، هي العطاء الفائق الذي استُعلِنَ للإنسانية.

هذه المســـتويات الثلاثة تجعلنا، بل تُلزمنا بأن نراجع ما لدينا من خلافات على ألفاظٍ وكلمات؛ لأن المصـطلحات لا يمكن أن تُسـتوعَب بشـكلٍ سـليم ما دام الحوار والبحث متعلِّق بلفظ أو عدة ألفاظ. ولذلك السـبب، كان شـكل وجوهر كل الهرطقات القديمة والحديثة هو ما تقدِّمه من إشكاليات لفظية تُنكر الاستعلان، مثل القول الأريوسي المشهور: "الأب يسبق الابن"، و"لم يكن الابن كائناً مع أبيه، بل كان هناك زمان لم يكن الابن فيه موجوداً". هذه إشكالية رد الأسماء: "آب وابن" إلى ما يحدث في عالم الإنسان.

تمايز الأقانيم:

كانت بشارة الملاك للقديسة مريم هي استعلان للثالوث:

- "الروح القدس يحل عليكِ ..

المولود منك يدعى ابن الله".

ثم جاءت معمودية الرب في الأردن باستعلانٍ آخر سمعنا فيه صوت الآب ينادي الابن، وظهر الروحُ بشكل حمامةٍ.

وهكذا، جاء تدبير الخلاص بتمايُز الأقانيم؛ لأن هذا التمايز هو الذي يجعل الابن يصـلي للآب، ويجعل الآب ينادي الابن. **التمايُز هو الآخر المسـاوي**، وهو آخرٌ لأن الآخر هو أحد دعائم الوجود كله، وليس الوجود الإنســاني وحده. وخَلقُ الإنســان على "صـورة الله ومثاله" هو أن يصـبح الله هو الآخر الذي يشـرح علة وجود الإنسـان. وخلقُ حواء: "ليس جيداً أن يكون آدم وحده"، لم يكن لمجرد اســتمرار النوع الإنســاني فقط، بل كان الآخر (حواء) هو ما كوَّن الشـركة، لكي ينمو الإنسـان بالشـركة مكمِّلاً

وجوده بالآخر.

هذه هي صورة الله فينا.

الآخر هو الآب بالنسبة للابن، والآخر هو الابن بالنسبة للآب، ونفس ما نقوله عن الآخر، خاصٌّ بالروح القدس.

لا يجب أن نخاف من كلمة "الآخر"؛ لأن "الآخر" عندنا ليس دائماً موضع سرور وبهجة، ولكن في الله، "الآخر" مساوٍ. "الآخر" هو ذاك الذي سمع صوت الآب: "هذا هو ابني"، أو "مجَّدتُ وسوف أُمجِّد".

الآخر والشركة

"**الآخر المنفصل**"، معلومٌ لنا في الحياة الإنسانية، وهو منفصلٌ عنَّا بحكم الولادة التي تجعل البعض منا يسبق البعض في الوجود. وهو أيضاً منفصل لأن الوعي بالذات عادةً لا يقبل الآخر إلا بعد صداقة أو اتفاق حول هدف. ولكن الآخر كائنٌ في الوعي الإنساني الذي يرى: "أنا وأنت". وأنت هو الآخر، وحتى في الحوار الذاتي الذي يدور في عقل الفرد "المنولوج"، يحوِّل الآخر "المنولوج" إلى "ديالوج".

"**الآخر في اتحاد**"، وهو ذلك الارتفاع إلى ما هو فوق الحدود البيولوجية في المحبة التي يتنازل فيها الإنسان –في حالات العشق الشديد– عن الأنانية والوجود الذاتي المحدود، ونسمعه عادةً في الشِّعر وفي أغاني الحب، حتى العامية منها. إنها رغبة الاتحاد بمن نحب لكي نغلب "العزلة". وتنتهي هذه العزلة دائماً بالتنازل عن أشياء وعن رغبات، ونجدها في الزيجة أو في حالات نادرة، في عشاق الله مثل الشيخ الروحاني، أو مار إفرام وغيرهم؛ لأن الشِّعر يتجاوز ما هو محدودٌ حتى باللغة، إلى آفاق الاتحاد.

"**ثالوث المحبة**"، تلك عبارةٌ قديمةٌ تجدها عند الفاهمين للتعليم مثل هيلاري أسقف بواتييه، وأوغسطينوس وغيرهم.

"**المحب والمحبوب والمحبة**" استغرق هذا الموضوع كتاب الثالوث لواحدٍ من أهم علماء اللاهوت، ريتشارد فيكتورينوس، وهو دارسٌ لما علَّم به الآباء من قبل. ولم يشتهر كتابه إلا في القرن العشرين، ونُشِر باللاتينية وغيرها من اللغات الأوروبية الحديثة. وأضاف ريتشارد عدة كلمات لاتينية لم تكن معروفة من قبل في محاولة شجاعة جداً لشرح الثالوث، ولكن الاهتمام بتوما الأكويني وغيره، غَلَبَ الاهتمام بكتاب ريتشارد.

اهتم ريتشارد بعلاقة الأقانيم، هي علاقة تبادُل الكيان، وحلول كل أقنوم في الآخر. استخدم كلمة لاتينية جديدة Condilectus وأقرب ترجمة إنجليزية لها هي *Interpersonal* فهي المحبة الأقنومية التي تجعل الآب في الابن، والابن في الآب، وكذلك الروح القدس. الروح ينبثق من الآب ويستقر في الابن. ومِن الابن نأخذ نحن الروح القدس. يحمل إلينا الروح القدس محبة الآب والابن، ومحبته هو، المحبة التي تنبثق من الآب؛ لأن "الله محبة". طبعاً الحلول المتبادل ***Perichoresis*** هو أن يجعل كل أقنوم الآخر فيه؛ لأن المقطع ***Peri*** يعني حرفياً حول ***round*** والمقطع ***Chorein*** يعني ***to make room for*** ولكن هنا لا يوجد مكان ***room*** ولا حتى المعنى الآخر لكلمة ***chorien*** "يحتوي"؛ لأن الاحتواء هو صورة مادية، أما حلول الآب في الابن حسب قول الرب: "أنا في الآب والآب فيَّ"، وأيضاً: "أنا والآب واحد" (يوحنا ١٠: ٣٠)، فلا يعطي لنا مجالاً لتصوُّر الاحتواء.

المحبة أقنوم، وليست صفة أو مشاعر أو عواطف:

التصوُّر الذي أُعطي منذ هيلاريون عن أن الآب والابن كلاهما يقدمان كيانهما للروح لأن الروح هو أيضاً يقدم كيانه للآب والابن حاملاً معه الإنسانية، هو تصوُّرٌ يطرح علينا ضرورة إعادة التفكير في عمل الروح القدس في تدبير الخلاص.

فالروح يحوّل كياننا ليكون مثل كيان الابن المتجسد، أي أننا ننال ذات المجد الذي ناله ناسوت الابن، وننال شركة في بنوته. ومحاصرة الروح القدس تمت من خلال حربين: الحرب الأولى هي إنكار سُكناه فينا واختراع لفظ جديد هو "الحلول المواهبي". والحرب الثانية هي اعتبار أن التكلم بالألسنة هو دليل سُكنى الروح القدس، وضاع عمل الروح القدس في القلب، وعمله في توحيد كياننا الميت المستعبَد، بكيان يسوع الرب؛ لكي ننال الحرية، أي "حرية مجد أولاد الله"، حسب كلمات الرسول بولس. ولكن علينا عدم الانجراف إلى أيٍّ من الحربين؛ لأن الحرب الأولى تنكر محبة الثالوث التي تنسكب فينا بالروح القدس (رو ٥: ٥). والحرب الثانية تنكر دور الروح القدس في اتحادنا بالرب.

المحبة، الأقنوم الثالث:

المحبة هي حركة حياة الثالوث، ليس في الله صفة تضاف إلى أيٍّ من الأقانيم الثلاثة. كل صفات الله هي صفات الأقانيم، فليس الله هو: جوهر + أقنوم + صفات = ثالوث. هذا خللٌ عقلي أصاب أستاذ الميكانيكا. كلُّ شيء في الله هو في الكيان الإلهي، هو في الأقانيم؛ لأن ما هو غير شخصي، هو غير أقنومي، خاص بنا نحن الطبائع المخلوقة التي تجعلنا أحياناً نكتسب صفات أو نخسر صفات؛ لأن **الطبيعة الإنسانية طبيعة قابلة للفساد**، لكن الله لا ينمو ولا ينقص ولا يضاف إليه لأنه كامل. والذين قالوا بأن الآب غفر لنا بعد أن صَبَّ غضبه على الابن، لم يدركوا أنهم جعلوا الله الآب مثل الخليقة، ينتظر في صبر لحظات الحصول على حقه.

الأقنوم ليس صفة:

ورثنا خطأً قاتلاً قَتَلَ الشركة، وهو أن الصفات تعلِن الأقانيم، فأصبحت صفات الأقانيم هي مجال استعلان الأقانيم، لكن تجسد ابن الله رَدَّنا إلى الصواب؛ لأن المتجسد أعلن في ذاته صفات الأقنوم، ولم يعد لأي صفة أي وجود ذاتي مستقل؛ لأن الرحمة هي رحمة المتجسد وكذلك المحبة.

طبعاً، هذا سهل بالنسبة للابن له المجد، ولكن ماذا عن عن الآب؟ والجواب سهلٌ أيضاً؛ لأن الابن جاء معلِناً عن الآب: "الذي رآني فقد رأى الآب". ويقول في تأكيد نابع من ذاته: "أنا في الآب والآب فيَّ". وماذا عن الروح القدس؟ لقد وُصِفَ بأنه "روح يسوع"، وقد وُهِبَ لكي يذكّر ويعلّم ويُظهِر المسيح ربَّاً (١كو ١٣: ١-٣)، بل كما كوَّن ناسوت الرب، يكوّن جسد المسيح الكنيسة، ليس في أحشاء البتول مريم، كما حدث في التجسد، بل في الماء والروح (رو ٦: ١-٨)، في سر المعمودية الذي أخذ قوته، بل وعمله من الرب يسوع؛ لأن الروح القدس لا يخلق من العدم، بل يخلق من يسوع، من آدم الجديد الكيان الإنساني الجديد الذي لا يختلف عن كيان يسوع، والذي يولد لكي ينمو نحو الكمال في الرب.

أعمال الثالوث هي أعمالٌ أقنومية. هي ليست صفات تعمل، بل هي أعمالٌ، أو بدقة أكبر، أفعالٌ، حيث يقوم كل أقنوم بتقديم عطية من أجل تكوين الحياة الجديدة في الإنسان. لقد شُرح هذا باختصار في الرسائل إلى سرابيون عن الروح القدس للقديس اثناسيوس، وفي كتاب الروح القدس للقديس باسيليوس.

إذا ابتعدنا عن الصفات وعُدنا إلى الأقانيم مُعلِنة الصفات، نجد إن المحبة ليست صفة، بل هي حياة الثالوث. وتعيين "المحبة" للروح القدس لا يُخفي انبثاق الروح من الآب، فهو محبة الله الآب التي تعطى للابن. وكان إصرار هيلاريون على أن اسم العطية هو اسمٌ أزلي هو إصرارٌ يؤكد أن المحبة الأزلية للآب تنبثق من الآب لكي تجمع الخليقة وتأتي بها إلى "حضن الآب"، حيث الابن الوحيد "الكائن في حضنه الأبوي كل حين" (قسمة عيد الميلاد).

أقنومية المحبة التي من الآب، وهي الأقنوم الثالث، حديثٌ طال انتظاره لأننا توقفنا عند الجانب التاريخي، أي شرح الثالوث والوحدانية في مواجهة هرطقات القرنين الرابع والخامس، ولم نهتم بفعل الروح القدس الخاص به عندما "يُسكَب"، والسكب هنا هو ذات الفعل الخاص بسكب دم ذبائح العهد القديم، وتعبير القديس بولس واضح:

"لأن محبة الله قد انســـكبت في قلوبنا بالروح القدس .." (رو ٥: ٥). إنه إخلاء الذات الذي يمارسه روح القداسة عندما يسكن في أي قلب مهما كان صاحبه، إذ لا يتعامل مع القلب الإنسـاني من خلال قداسـته، بل من خلال قدرته الحرة على التنازل عن القداسـة لكي يســـكن في كل القلوب النجســـة لكي يطهِّرها ويقدِّســـها. والتقديس هو رَد هذه القلوب إلى التكوين الحقيقي غير المزيَّف الذي لم تزيِّفه الخطية. ورغم أننا درجنا على أن نقول إن القديس هو مَن هو بلا خطية، إلا أن هذا التعريف بالذات لم يرد في العهدين، بل القدوس هو الذي لا مثيل له ولا يمكن تكراره. لذلك، يحل فينا الروح لكي نعود إلى الصورة الإلهية غير المزيَّفة.

عندما نتقدس، ترتفع محبتنا من محبةٍ تعمل تحت تأثير الحواس مندفعةً نحو ما هو محسـوس، إلى محبةٍ تعلو على ما هو محسـوس وملموس إلى ما هو حقيقي يعلو إلى حيث الأمانة والبذل والخدمة والشهادة، وكل ما هو حقيقي.

الأقنوم والعطاء:

لم يكن تدبير الخلاص هو رصد قصة دُوِّنت لأجلنا، بل كان استعلان شركة. ما هو هدف البشـــارة؟ يجيب يوحنا الإنجيلي: "لكي يكون لكم حياة ... الحياة التي كانت عند الآب وأُظهرت لنا". عطاءُ الحياة هو صـلتنا بالأقانيم. وكلمة "صـلة" ليسـت في قوة كلمة "شـــركة". العطاءُ ذاتيٌّ، وليس مجرد خبرٍ قيل، لذلك يقول الرب: "أنا هو القيامة والحياة"، وأكَّد أن "مَن يؤمن به سوف يحيا إلى الأبد".

العطاء حســـب قدرة أو قدرات البشـــر هو عطاءٌ لا تقديمَ فيه للذات. وحتى شهداء الكنيسة أو شهداء الوطن أو الشهداء عموماً، قد قدَّموا حياتهم؛ لأن الموت فُرِضَ عليهم، وتقديم الحياة والتضـــحية بها هو عملٌ شـــريفٌ نبيل، وبطولة فائقة تؤثِّر في حياة البشر، ولكن هنا في الثالوث، جاء الموت إرادياً طوعياً، وجاء لكي تُسكَب حياةُ مَن عَبَرَ بوابة الموت في حياة المائتين. يموت شـهداء الوطن لكي نحيا نحن في كرامة، ولكن المسـيح

رب المجد مات لكي يحرِّرنا من الموت، والروح معطي الحياة "يسكب" محبة الثالوث لكي نحب مثل الثالوث.

الأقنوم هو استعلانُ العطاء، وهو استعلانُ المحبة، وهو أيضاً استعلان الوحدة. من العطاء النابع من المحبة، نصل إلى العطاء الذي يوحِّدنا نحن كلنا بالعاطي، أي الثالوث.

من الآب ينبع العطاء في ميلاد الابن الأزلي، يولد أزلياً لكي يعطي أبدياً. ومن الابن نأخذ الهبة؛ لأننا صرنا مؤهَّلين بسبب عطية التبني. ويأتي الروح المنبثق من الآب لكي يحل ويسكن فينا. هذه هي إحاطة المخلوقات بكل قوة وجمال المحبة الإلهية، أو حسب تعبير القديس إيريناوس: الآب وضع يديه الاثنتين حولنا، أي الابن والروح القدس.

الأقنوم يجب أن يُفهم كعطاء، وتحليل تاريخ اللفظ لا يفيد بقدر ما يفيد العمل الأقنومي في التدبير الذي يحيط بنا لكي ندخل في ملء شركة محبة الثالوث الحية والواهبة الحياة.

د. جورج حبيب بباوي